الفصل التاسع عشر

اغتصاب بولنده

١٧١٥ — ١٧٩٥

١ — نظرة عامة على بولنده : ١٧١٥ — ١٧٦٤

كانت الجغرافيا ، والعرق ، والدين ، والسياسة ، هى الأعداء الطبيعية لبولنده . ذلك أن هذا القطر كان يعدل فرنسا اتساعاً ، إذ امتد عام ١٧١٥ من الأودر غرباً إلى ما يقرب من سمولنسك وكييف شرقاً ، ولكن لم يكن له حد طبيعى — من جبال أو نهر عريض — على أى جبهة ليقيه شر الغزو ؛ وقد اشتق اسم بولنده من كلمة « pole » وهو السهل . ولم يكن لها سوى منفذ واحد إلى البحر — عند دانتزج ، أما الفستولا الذى وجد له مصباً هناك ، فلم يكن بالحد الذى يصلح للدفاع ضد بروسيا المجاورة . وقد افتقدت الأمة وحدة العرق ، فكانت كثرة البولنديين البالغة ٦,٥٠٠,٠٠٠ نسمه (١٧١٥) فى صراع متقطع مع الأقليات الألمانية واليهودية واللتوانية والروسية ؛ وهنا التقى التيوتون والسلاف وجهاً لوجه فى عداء طبيعى . ولم يكن هناك وحدة دينية : فالأغلبية الكاثوليكية الرومانية تحكم وتظلم «المنشقين» — وهؤلاء هم الآخرون منقسمون فى نزاع وخصام بين بروتستنت وروم أرثوذكس ويهود . ولم يكن هناك وحدة سياسية ، لأن سلطة السيادة التى حرص أصحابها على الاحتفاظ بها كانت فى يد « السجم » أو « الديت» ، المؤلف كله من نبلاء لكل منهم ، بمقتضى حق النقض المطلق ، سلطة إبطال مفعول أى اقتراح يقترحه الباقون كلهم ، وإنهاء أى دورة ، أو أى ديت منتخب ، ان شاء . أما الملك فينتخبه الديت ، وهو خاضع لـ « مواثيق » يوقعها شرطاً

لانتخابه ، ولم يكن فى استطاعته أن يتبع أى سياسة طويلة المدى وهو مطمئن أقل اطمئنان إلى توريث تاجه لذريته أو تلقى التأييد المتصل . وقد طالب النبلاء بهذه السلطة غير المقيدة على التشريع لأن كلا منهم أراد أن يكون مطلق الحرية فى السيطرة على أراضيه وأقنانه . ولكن التقييد روح الحرية ، فما إن تصبح الحرية مطلقة حتى تقضى عليها الفوضى ، وتاريخ بولنده بعد جان سوبيسكى كان سجلا للفوضى .

وكان أكثر الأرض يزرعه أقنان يرسفون فى قيود ذل إقطاعى لامغيث لهم منه . وكان السيد الإقطاعى أحياناً رفيقاً بهم ، ولكنه كان دائماً مطلق السلطة . وأما أقنانه فلم يدينوا له فقط بجزء المحصول الذى يقدره ويطالبهم به ، بل كان لزاماً عليهم أيضاً أن يعطوه من كدهم ، دون أجر ، عمل يومين أو ثلاثة فى ضيعته كل أسبوع . ومن حسن الحظ أن الأرض الجيدة الرى كانت خصبة ، فوجد الفلاحون ما يكفى لإقامة أودهم ، ولكن كوكس وصفهم بأنهم « أشد فقراً وذلا وشقاء من أى شعب لاحظناه فى رحلاتنا »[١] . وكان سادتهم المحليون هم الطبقة الدنيا من النبلاء أو صغار الأعيان (شلاختا) ، وهؤلاء الملاك بدورهم كانوا خاضعين لنحو مائة من الأقطاب الذين يملكون أو يشرفون على مساحات شاسعة . وكان صغار الأعيان يشغلون معظم الوظائف التنفيذية فى الدولة ، وهم من الناحية النظرية يؤلفون الغالبية فى مجلس السجم ، ولكن السياسة البولندية كانت من الناحية الفعلية صراعاً بين الأقطاب أو أسرهم ، الذين يتلاعبون بمجموعات من صغار الأعيان مستعينين بالنفوذ الاقتصادى أو الرشوة المباشرة [٢] .

وظلت الأسرة فى بولنده تحتفظ بأفضليتها البدائية على الدولة . فكان آل رادزيفل ، وآل بوتوكى ، وآل تشارتوريسكى ، كل منهم يترابط أفراده بعاطفة من التماسك الأسرى أوثق من أى رباط قوى ؛ هنا كان حب الوطن هو حرفياً احترام الأب وتبجيله ، والأب الأكبر سناً فوق كل شىء . وكانت الأسرة قوية كنظام أو مؤسسة ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى والتهذيب الأخلاقى ، فلم يكن هناك نزعة فردانية اقتصادية تشتت الأبناء

فى أرجاء الوطن ؛ والإبن يقيم عادة فى الضيعة الموروثة ، خاضعاً لأمر أبيه مادام الأب حياً . وزكت الأسرة بفضل وحدة السلطة ، هذه الوحدة ذاتها التى أضعف الدولة افتقادها. وكانت كل ثروة الأسرة تحت اشراف أبوى ممركز ، وفى كثير من الحالات كانت تزداد من عام إلى عام بفضل أرباح الاستغلال والتصدير المعاد استثمارها من جديد ، وفى حالات عديدة فاقت ثروة الملك نفسه . وكان عشرون أسرة بولنديه فى القرن الثامن عشر ينفق كل منها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام على البيت(٣) . وكانت الأسرة القوية تسمى بيتها بلاطاً ، له مستخدموه ، وجيشه الخاص ، وخدمه الكثيرون ، ومظاهر الأبهة الشبيهة بأبهة الملوك ؛ من ذلك أن الأمير كارول رادزيفيل ، الذى بلغت مسحة أرضه نصف مساحة بولنده ، أولم فى ١٧٨٩ وليمة لأربعة آلاف ضيف كلفته مليوناً من الماركات (٤) .

أما أشهر الأسر البولندية قاطبة — والتى بلغ من شهرتها أنها كانت تعرف باسم « الأسرة » فقط — فهى أسرة تشارتوريسكى . فقد تبوأت مرتبة الإمارة منذ القرن الخامس عشر ، واتصلت بصلة القرابة ببيت جاجيللو ، الذى حكم بولنده من ١٣٨٤ إلى ١٥٧٢ . وقد تزوج الأمير كازيميرز تشارتوريسكى (مات ١٧٤١) ، نائب مستشار لتوانيا ، بايزابللا مورستين ، التى أضافت دفعة جديدة من الثقافة الفرنسية إلى الأسرة . وأنجب منها ثلاثة من المشاهير هم : (١) فردريك ميشال تشارتوريسكى ، الذى أصبح كبير مستشارى لتوانيا ، (٢) ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى ، الذى أصبح أمير بالاتين لـ « روسيا الحمراء » ، (٣) قنسطنطياً التى تزوجت ستانسلاس بونياتوفسكى الأول ، وولدت له بونياتوفسكى الثانى ، وهو الشخصية المأساوية الكبرى فى التاريخ البولندى .

ومن مفاخر آل تشارتوريسكى فوق ما تميزوا به أن نزعتهم التحررية نمت بنمو ثروتهم ، فقد طالما عرفوا بترفقهم بأقنانهم ؛ قال أحد معاصريهم « لو أننى ولدت قنا لوددت أن أكون قنا للأمير ألكسندر أو غسطس تشارتوريسكى» (٥) . فأنشأوا المدارس للأطفال ، وزودوهم بالكتب

المدرسية ، وبنوا الكنائس والمستشفيات والأكواخ النموذجية . ثم جلبوا إلى ضيعتهم وقصرهم فى بولافى (قرب لوبلين) معلمين ودارسين دربوا الشباب أياً كانت طبقتهم ، على خدمـــة الدولة . أما من الناحية السياسية فأن الأسرة عارضت حق النقض المطلق لأن من شأنه أن يجعل الحكم الفعال ضرباً من المحال . واتحدت ضدهم أسر كثيرة شعرت بأن حق النقض هو حاميها الأوحد من الأونقراطية الممركزة . وكان أقواها أسرة بوتوكى ، وزعيمها الأمير فيلكس بوتوكى ، الذى كان فى استطاعته أن يركب ثلاثين ميلا فى اتجاه واحد دون أن يجاوز أرضه — ثلاثة ملايين من الأفدنة فى أوكرانيا .

أما الصناعة والتجارة ، اللتان شاركتا فى القرن السادس عشر فى جعل بولنده قطراً عظيماً وفى إثراء مدنها ، فقد عطلتهما خصومة ملاك الأرض ومجلسهم النيابى المطيع . فكانت مدن كثيرة بأسرها تقع فى نطاق الملكية الخاصة لقطب من الأعيان آثر الزراعة على الصناعة مخافة أن تنشأ طبقة وسطى مستقلة . وكانت منافسة الحرف اليدوية التى ينتجها الأقنان فى الضياع قد جرت الكساد على مهرة الصناع فى المدن . كتب انطونى بوتوكى فى ١٧٤٤ يقول « إن خراب المدن ظاهر للعيان حتى أن كبرياتها فى الدولة — باستثناء وارسو دون غيرها — أشبه بأوكار اللصوص» (٦) . فى مدينة لفوف مثلا كثر النجيل فى الشوارع ، وأصبحت بعض ميادينها حقولا مفتوحة ، ومدينة كراكاو التى كانت يوماً ما من أعظم المراكز الثقافية فى أوربا هبط عدد سكانها إلى تسعة آلاف ، وعدد الطلاب فى جامعتها الشهيرة إلى ستمائة (٧) .

ويرجع بعض ما أصاب المدن من انحلال إلى عودة الكاثوليك إلى غزو بولنده . فقد كان كثير من البروتستنت المطرودين تجاراً أو صناعاً مهرة ، وقد ترك تقلص عددهم فى جميع أرجاء بولنده إلا غربيها (حيث بقى ألمان كثيرون) للمسرح البولندى لملاك الأرض ، وكان هؤلاء من الكاثوليك الرومان ، أو فى الشرق من الروم الأرثوذكس أو الموحدين (وهم كاثوليك يمارسون الطقوس الشرقية ولكنهم يعترفون ببابا روما) .

وكان المنشقون أو المخالفون — من البروتستنت والروم الأرثوذكس واليهود ، وجملتهم ثمانية فى المائة من السكان — محرومين من الوظائف العامة ومن عضوية الديت ، وكل الدعاوى المرفوعة ضدهم ينظرها محاكم كاثوليكية خالصة (٨) . وقد بلغت الخصومة الدينية مبلغاً دفع الجماهير عام ١٧٢٤ ، فى مدينة تورون (ثورن) التى كان أكثر أهلها من البروتستنت ، إلى أن تنتهك قدسية القربان وتدوس على صورة العذراء بعد أن أثار غضبها الشديد مسلك طالب يسوعى . وقد أعدم تسعة من هؤلاء المغيرين . واستنجد بروتستنت بولنده ببروسيا ، والروم الأرثوذكس بالروسيا ، وعرضت بروسيا وروسيا الحماية ، ومنها تقدمتا إلى الغزو والتقسيم .

أما أخلاق البولنديين فقد شابهت الأخلاق الألمانية على المائدة ، والفرنسية فى الفراش . وقد أكره الفلاحين على الاكتفاء بالزوجة الواحدة عكوفهم على الأرض والنسل ، ولكن هذا الاكتفاء كان عسيراً فى العاصمة لجمال النساء و « ساوكهن المغرى»(٩)، هؤلاء النساء اللاتى لم يسمحن لتعليمهن الأرقى بأن يقف عقبة فى طريق فتنتهن . ويروى أن نساء الطبقة الراقية فى وارسو كن من الناحية الجنسية منحلات كنساء باريس (١٠) . ويؤكد لنا بوتياتوفسكى أنه كان بكرا حتى الثانية والعشرين (١١) ، ولكنه يضيف أن هذه العفة كانت شاذة فى طبقته — وكان السكر متوطناً لايعرف الفوارق بين الطبقات . فهو بين الفلاحين أنساهم فى نشوته ما يعانون من فقر أو مشقة أو برد ، أما النبلاء فقد سرى عنهم ما يعانون من العزلة والسأم ، وفى جميع الطبقات كان الذكور ينظرون إليه لا على أنه رذيلة بل مظهر من مظاهر التميز . وقد كرم القوم يان كومارتشفسكى لأنه استطاع أن يفرغ فى جوفه دلواً من الشمبانيا فى جرعة واحدة دون أن يدور رأسه أو تخونه قدماه . وقد نبه القوم بونياتوفسكى إلى أنه لن يكون محبوباً ما لم يثمل بالشراب مرتين فى الأسبوع(١٢) . وكان اكرام الضيف عادة شائعة بين الجميع ، ولكنه كان يقاس بمقدار الطعام والشراب الذى يقدم للضيف . وقد يحدث أن يرهن أحد الأقطاب مدينة يملكها ليدفع نفقات مأدبة .

وكان البولنديون المثقفون يضفون على المشهد رونقاً بأزيائهم . أما الفلاح فكان فى الصيف يقنع بالقميص والسراويل إلى الركبة من التيل الخشن ، دون جوارب طويلة أو حذاء . وفى الشتاء يدثر نفسه كالحزمه دون مراعاة للون ، ولا وقت للزينة ، وأما الأعيان الذين يعدون نحو ٧٢٥,٠٠٠ فلباسهم الحذاء الطويل والسيف والقبعة ذات الريشة والرداء الملون من الحرير أو المخرمات ، ثم حول الخصر حزام عريض من النسيج المنقوش ذى الألوان الكثيرة . وهذا الزى الذى اعتزوا بقوميته نقلوه عن المسلمين نتيجة اتصال اللتوانيين بالأتراك فى أوكرانيا ، وقد عكس ماكان يحدث أحياناً من تحالف بين بولنده وتركيا ضد النمسا أو روسيا ، وربما عبر عن عنصر أسيوى فى عادات البولنديين وأخلاقهم .

أما من الناحية الثقافية فقد عطل بولنده من ١٦٩٧ إلى ١٧٦٣ عدم مبالاة ملوكها السكسون بالأدب والفن السلافيين ، كما عطلها حربان مدمران . ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية أهم راع للفنون فحسب ، بل إنها كانت الموزع للتعليم والأمين الأكبر على نفائس الثقافة والأدب . وقد فرضت حجراً دقيقاً على بولنده يقيها حركة العلم والفلسفة فى الغرب ، ولكنها فى نطاق حدودها نشرت المعرفة ونمتها . من ذلك أن جوزيف زالوسكى أسقف كييف جمع ٢٠٠,٠٠٠ مجلد فى وارسو لمكتبته التى تعد من أعظم مكتبات العصر ، وفى ١٧٤٨ فتحها للجمهور وأهداها للأمة ؛ وكان أثناء ذلك يحيا حياة الزهد ، وقد ضحى بنفسه فى الصراع الناشب ليحفظ على بولنده استقلالها .

وهو الذى وجه القسيس الشاب المتطلع ، ستانسلاس كونارسكى ، إلى دراسة التاريخ والقانون وفى ١٧٣١ أصدر كونارسكى المجلد الأول من أربعة مجلدات جمعت ونسقت القانون البولندى من كازيمير الأكبر حتى وقته . هذه الأبحاث وغيرها كشفت لكونارسكى عن مدى سقوط بولنده المحزن من حالة الازدهار الذى شهدته أيام النهضة الأوربية . وقد اقتنع بأن البعث لن يأتى إلا من القمة ، لذلك أنشأ فى وارسو (١٧٤٠) «كلية للنبلاء» يتلقى فيها شباب الأشراف تعليماً لايقتصر على الرياضة واللغات والآداب الكلاسيكية (التى أجاد اليسوعيون تدريسها) ، بل يشمل

العلوم الطبيعية واللغات الحديثة . وكان هذا عملاً بطولياً ، لأنه لم يكن لديه مال ولا كتب ، ولا معلمون و لا تلاميذ ، ومع ذلك فقد جعل من كلية النبلاء هذه بعد خمسة عشر عاماً من الكد معهداً ذائع الصيت مرموقاً ، وأحد المنابع للإحياء الثقافى فى عهد بونياتوفسكى وللدستور ١٧٩١ المستنير .

وقد دعا لإصلاح اللغة البولندية تخليصاً لها من العبارات اللاتينية والبلاغة المزوقة ؛ واحتجت الأمة ، ولكنها تعلمت . ثم توج كونارسكى أعماله بإصداره فى بولنده (١٧٦٠—٦٣) أهم رسالة سياسية فى القرن ، تحمل هذا العنوان البرىء ، « فى التسيير الفعال لدفة المناقشات » ولكنها احتوت ثورة شعواء على حق النقض المطلق . وهنا أيضاً ارتفعت الاحتجاجات الكثيرة ولكن بعد عام ١٧٦٤ لم يحل «ديت» بحق النقض . وبمعونة كونارسكى بدأ يونياتوفسكى إصلاح الدستور البولندى .

وقبل ذلك الإحياء الرائع المتقطع عانت بولنده سبعة عشر عاماً من الفوضى والعار والاضمحلال تحت حكم الملوك السكسون .

٢ — الملوك السكسون : ١٦٩٧ — ١٧٦٣

فى موضع آخر من هذا الكتاب [١٣] ذكرنا كيف تخطى الديت البولندى ابن سوبيسكى العظيم ليعطى تاج بولنده لفردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا الذى دخل فى المذهب الكاثوليكى بين عشية وضحاها ليصبح أوغسطس الثانى (أى القوى) ملك بولنده ، وكيف ولى شارلى الثانى عشر ملك السويد مكانه ستانسلاس لشتشز نسكى (١٧٠٤) ، وكيف أتاحت هزيمة شارل فى بلطاوه (١٧٠٩) لأوغسطس أن يستعيد عرشه ، وقد تمتع بالقليل من السلطات التشريعية التى كان يتمتع بها ملوك القرن الثامن عشر ، ولكن بكل امتيازات الملوك الجنسية . فلما فشل فى حكم بولنده رد حبه على سكسونيا ، فجمل درسدن ، وأترع جوفه بالجعة ، وأفرغ عافيته بالخليلات ، ثم أضاف الإهانة إلى الأذى باتخاذه واحدة فقط من هؤلاء الخليلات من بين حسان

بولنده . وفى أخريات عهده وضع خطة لتقسيم بولنده بين النمسا وبروسيا وسكسونيا ، ولكنه مات (١ فبراير ١٧٣٣) قبل أن ينفذ تدبيره الشرير . وقد قال على فراش الموت ، « إن حياتى كلها كانت خطيئة متصلة »(١٤) .

وفى فترة خلو العرش التى تلت ذلك خلال تجميع ديت انتخابى ، أغدق المبعوثون الفرنسيون المال ليكسبوا نواباً يعملون على إعادة لشتشزنسكى. وكان ستانسلاس منذ خلعه يعيش فى الألزاس مستمتعاً بالسلام والأمل . وفى ١٧٢٥ أصبحت ابنته مارى ملكة على فرنسا بزواجها من لويس الخامس عشر ، وتوقع لويس الآن أن يتبع حموه ، متى رد إلى عرشه ، السياسة الفرنسية ، سياسة توحيد بولنده وبروسيا وتركيا فى صف واحد يضرب نطاقاً حول النمسا . وشعرت الحكومة الروسية بأن حلفاً كهذا من شأنه إضعافها فى صراعاتها المحتومة مع تركيا وبروسيا ، فبادرت بإرسال الروبلات إلى وارسوا لتمنع انتخاب لشتشزنسكى . ولكن الجنيهات الفرنسية كانت أثقل من الروبلات الروسية ، وفى ١٠ سبتمبر ١٧٣٣ أصبح لشتشزنسكى ملكاً على بوليده باسم ستانسلاس الأول .

ورفضت أقلية الاعتراف بانتخابه ، ووضعت نفسها تحت حماية جيش روسى زحف على الفستولا ونادى بالناخب السكسونى ملكاً على بولنده باسم أوغسطس الثالث (٦ أكتوبر) . وهكذا بدأت حرب الوراثة البولندية ، وبدأ أول تدخل حاسم لروسيا فى شئون بولنده وبحث ستانسلاس عن جيش بولنده يدافع عنه ، فلم يجد جيشاً إلا على الورق ، ففر إلى دانتزج واستنجد بفرنسا . وكان يرأس الحكومة الفرنسية آنذاك الكردينال فلورى ، ولم يكن به رغبة لخوض حرب مع روسيا النائية ، فأرسل مفرزة من ٢,٤٠٠ جندى سحقها الروس بجيش من اثنى عشر ألف مقاتل . وفر ستانسلاس من دانتزج واعتكف فى اللورين . وفى يناير ١٧٣٦ وقع على تنازله عن العرش ، وفى يوليو اعترف بأوغسطس الثالث ملكاً .

ولكنه لم يكن أصلح من لشتشزنسكى لقيادة أمة ركبت الفوضى فى صميم دستورها . وتعاون فترة مع آل تشارتوريسكى فى محاولات لإنهاء

حق النقض ، فاستعملت أسرة بوتوكى الفيتو المرة بعد المرة للاحتفاظ بهذا الحق ، وأخيراً يئس أوغسطس وأخلد إلى الدعة فى درسدن ، ولم يزر بولنده إلا لماما . واستمر الفساد واستشرى ، وشارك الملك فيه إذ ألفى نفسه عاجزاً عن وقفه ، وباع المناصب لمن يدفع فيها أغلى الأثمان . وهيمن الأقطاب على المحاكم والقوات المسلحة ، وتفاوضوا رأساً مع الدول الأجنبية وتلقوا منها الإعانات المالية (١٥) . وناورت فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا لترى أيها يستطيع الظفر بنصيب الأسد من انحلال دولة بولنده الوشيك .

وقبل موت أوغسطس الثالث (٥ أكتوبر ١٧٦٣) وبعده تذرعت المنافسة على تعيين خلفه والتسلط عليه بكل حيلة دبلوماسية حتى وصلت إلى شفا الحرب . فطالب آل بوتوكى بجيش دائم عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليحمى بولنده من السيطرة الأجنبية ، أما آل تشارتوريسكى فقد راضوا أنفسهم على أن تكون بولنده محمية روسية ، وتفاوضوا مع كاترين الثانية . وأدعت روسيا لنفسها الحق فى حماية الأقلية الرومية الأرثوذكسية فى بولنده ، ومدت ذاكرتها إلى الماضى البعيد لتتذكر أن أقاليم بولنده الشرقية انتزعها من روسيا سانت فلاديمير (٩٥٦ — ١٠١٥) قبل ثمانمائة سنة . أما فرنسا فقد ناصرت ابن أوغسطس الثالث خلفاً له ، فلو أن روسيا سيطرت على بولنده لأنهار صرح السياسة الخارجية الفرنسية كله فى الشرق . وأما فردريك الأكبر الذى كان قد اختتم لتوه سبع سنين من الحرب الطاحنة مع فرنسا والنمسا ، فقد كان فى حاجة إلى صداقة كاترين التى نجا من الكارثة بإذنها ، ووافق على أن يؤيد مرشحها للتاج البولندى ، ثم أبرم معها (١١ أبريل ١٧٦٤) معاهدة تلزم الطرفين سراً بمعارضة أى تغييرات فى دستور بولنده أو السويد ، مخافة أن تقضى أى زيادة فى سلطة الملك إلى جعل أحد هذين القطرين أوكليهما قوياً إلى حد خطر ؛ وهكذا اعتزما الدفاع عن الفوضى باسم الحرية . وهدأت كاترين مخاوف آل تشارتوريسكى بوعدها باختزال حق النقض المطلق بعد أن تستقر الأمور فى نصابها ، وباختيارها محسوباً من هذه الأسرة مرشحاً للعرش . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٤ ، وبإجماع آراء «ديت» أقنعته الروبلات ،

وجيش روسى لايبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال ، أختير ستانسلاس بونياتوفسكى ليتبوأ عرش بولنده .

٣ — بونيا توفسكى

ولد لستانسلاس بونيا توفسكى الأب ، حاكم كراكاو، وقسطنطيا تشارتو ريسكى ، فى ٧ يناير١٧٣٢ . قال لمدام جوفران «ربيت تربية صارمة جداً على يد أم ندر أن تجدى لها نظيرا اليوم فى أى مكان ، فى حين اكتفى أبى فى وعظى بأن أجد فيه الأسوةالحسنة » (١٦) . وحين بلغ السادسة عشرة بدأ القيام برحلات واسعة . وفى ١٧٥٣ بهر مدام جوفرات وصالونها وكل باريس تقريباً بهيأته ومسلكه وشبابه . وبعد بضع سنوات ، وجريا على سنة جيله ، كتب صورة ذاتية كانت مطابقة للحقائق مطابقة منصفة ، قال فيها :

« كان خليقاً بى أن أرضى عن شكلى لو كنت فقط أطول بوصة ... وكان أنفى أقل انعقافاً، وفمى أصغر بعض الشىء . بهذه التحفظات أعتقدأن وجهى طلق معبر ، ومظهرى لا يخلو من امتياز . . . وكثيراً ما يجعلنى قصر نظرى أبدو مرتبكاً، ولكن للحظة واحدة فقط . فالواقع أننى قد أوذى شعور الغير بالتطرف فى الناحية المضادة — بسلوك شديد الخيلاء ويعينى ما حصلت من تعليم ممتاز على إخفاء عيوبى العقلية والبدنية ، حتى أن كثيراً من الناس ربما توقعوا منى أكثر مما أستطيع إعطاءه فى يسر . وعندى من الذكاء ما يكفى للمشاركة فى أى حديث ، دون أن يكفى للحديث طويلا ومراراً . على أن ما فطرت عليه من تعاطف ولطف كثيراً ما يخف لنجدتى . وبى ولع طبيعى بالفن . . . ويمنعنى كسلى أن أوغل فى الفنون والعلوم كما أشتهى . وأنا إما مفرط فى العمل وإما عاطل منه . وفى استطاعتى الحكم على الأمور حكماً جيداً جداً . . . ولكننى فى مسيس الحاجة للمشورة المخلصة لكى أنفذ أى خطة من بنات أفكارى . وأنا حساس جداً ، ولكن الحزن يؤثر فى أكثر كثيراً من الفرح . فأنا أول من يبتئس . . . وإذا أحببت أحببت حباً جماً . . . ولست

محباً للثأر . ومع أنني فى أول لحظات غيظى قد أتوق للانتقام من أعدائى ، إلا أننى لا قدرة لى أبداً على إنفاذ رغبتى ، فالحنو يقف دائماً حائلا بينى وبين الثأر» (١٧) .

وتوحى قدرة بونياتوفسكى على أن يرى ذاته — ويعبر عنها — على هذا النحو الجميل بأنه ولد ليفكر ويكتب لاليخطط وينفذ . وكان قد التقى بمونتسكيو وقرأ فولتير ؛ واكتسب رهافة ونعومة المجتمع الفرنسى الفكرية مع درجة من تلك « الحساسية» التى أخذت تجد التعبير عنها فى روسو . وكان شديد الحساسية للنساء ، ويشعر أن ما أعطينه ، جسداً وروحاً ، لا يقدر بثمن. وقد شاع أنه قبض عليه فى باريس لعدم وفائه بدين ، ثم أطلق سراحه بعد حبسه ساعة ، عندما دفعت مدام جوفران ١٠٠,٠٠٠ جنيه ليفرج عنه»(١٨) .

وبعد أن قضى فى باريس خمسة أشهر ، وإذ كان قد تعلم الانجليزية ، فقد مضى إلى انجلتره واختلف إلى بعض جلسات البرلمان ، وتطلع إلى إعادة تشكيل الموقف البولندى على غرار انجلتره كما صورها مونتسكيو . فلما عاد من رحلاته (١٧٥٤) عين مشرفاً أول للتواينا . وبعد عام رافق السير تشارلز هانبرى ويمز إلى روسيا ، وكانت النتائج كما أسلفنا . ثم عاد إلى وطنه عام ١٧٥٦ ، ولكنه ذهب إلى سانت بطرسبرج فى ١٧٥٧ سفيراً لبولنده . وشارك فى المؤامرة ضد اليزابث فى ١٧٥٨ ، وأكره على الرحيل عن روسيا دون أن يمهل وحزنت كاترين على رحيله ، ولكنها حين أيدته ليرتقى عرش بولنده لم يكن دافعها أنها لم تزل تحبه ، بل لأنه (فى زعمها) أقل حقاً فى العرش من أى مرشح آخر ، وإذن فخليق به أن يكون أكثر عرفاناً بهذا الصنيع (١٩) . أما هو فلم يفق قط كل الإفاقه من تلك العلاقة الغرامية المثيرة ، وكان يتذكر كاترين قبل أن تقسى السلطة قلبها ، وبقى افتتانه بها حتى حين اتخذته مطية لإخضاع شعبه .

وبعد انتخابه بيومين أرسل النبأ إلى مدام جوفران :

« ماما العزيزة : يبدو أننى أجد لذة أعظم وأنا أدعوك بذلك الإسم

منذ أمس الأول . (وكانت أمه ميتة) لم يكن فى تاريخنا كله انتخاب بهذا الهدوء وهذا الإجماع . . وكانت كل كبريات نبيلات المملكة حاضرات فى ساحة الانتخاب وسط أفواج النبلاء . . . وسرنى أن تنادى بى أصوات جميع النساء كأصوات جميع الرجال . . . فلم لم تكونى هناك ؟ إذن لانتخبت ابنك » (٢٠) .

وقد رأينا كيف اقتحمت « ماما » طرق أوربا لتزور « ابنها » فى قصره بوارسو (١٧٦٦) . وإذ لم يكن لديها مفهوم واقعى عن الفجوة التى تفصل بين الحضارتين الفرنسية والبولندية ، فقد تاقت نفسها إلى أن تراه يرفع بولنده فى عام واحد ما يقتضى رفعه قرناً ، وأصبحت مشورتها مصدر إزعاج له ، وكدرت محبة بونياتوفسكى البنوية لها ؛ فتنفس الصعداء حين رحلت ، وإن هدأها بالمجاملات وبصورة لشخصه فى إطار مرصع بالماس . واحتفظت بالصورة ولكنها ردت الماس . فلما نأت عنه عاودها حبها له فى كل حرارته ، وكتبت له من فيينا تؤكد له « المحبة التى هى ضرورة من ضرورات حياتى » (٢١)

وبذل ستانسلاس ما وسعه من جهد . فانقطع لمهام الحكم خلال هذه السنوات الأولى بشعور الحاكم المخلص لواجبه . فكان يحضر كل يوم مداولات وزرائه ، ويعكف إلى ساعة متأخرة من الليل على مشكلات اضطلع ببحثها فى تفصيل شديد التدقيق . وقد وفق إلى حد كبير فى تدريب فيلق من الموظفين المدنيين ذوى الكفاية الفائقة والنزاهة المذهلة (٢٢) . ثم فتح بابه لمن يريد لقاءه، وسحر الجميع بلطفه ، ولم يسحر الجميع بتحمسه للإصلاح . ولكن نشاطه خفف منه إحساسه بأنه معتمد على كاترين ، لا بل على الجيش الروسى الذى خلفته فى بولنده ليكفل سلامته وطاعته . وكان سفيرها الكونت أوتوفون شتاكلبرج يرقبه بعينه الساهرة مخافة أن ينسى سلطان روسيا عليه .

وكان الأعداء يحدقون به من بعيد ومن قريب . فالنبلاء البولنديون حزبان : الحزب الذى يتزعمه آل بوتوكى يدعو للاستقلال قبل الإصلاح ،

ويرغب فى كبح سلطة الملك بالإبقاء على قوة الارستقراطية ، والحزب الآخر الذى يتزعمه آل تشارتوريسكى يطلب الإصلاح أولا ، وحجته أن بولنده بفوضاها الراهنة أضعف من أن تنضو عنها الحماية الروسية . وكان آل تشارتوريسكى مترددين فى تأييد يونياتوفسكى ، فقد أحزنهم سرفه وكثرة خليلاته . وقد خصص له الديت ٢,٢٠٠,٠٠٠ طالر فى العام ، وفى ١٧٨٦ زادها إلى ٦,١٤٣,٠٠٠ جولدن — وهو ما يوازى ثلث إيراد الحكومة . ولكنه تجاوز مخصصاته ، لأنه كان قد اقترض من المصارف فى وطنه وفى خارجه . ودفعت الدولة ديونه مرتين ، ومع ذلك ففى عام ١٧٩٠ كان لايزال مديناً بمبلغ ١١,٥٠٠,٠٠٠ جولدن [٢٣] . وكان مثل كاترين يتطلع إلى تخليد ذكرى ملكه بتشييد الصروح الباذخة ، ووزع نفسه وحاشيته على قصرين غاليين ، وأقام حفلات الترفيه الكثيرة التكلفة ، وأغدق العطايا على الفنانين والكتاب والنساء .

وكانت جاذبيته غالية التكلفة . فلقد كان عند توليه العرش فى الثانية والثلاثين من عمره ، وسيماً مثقفاً كريماً غير متزوج ، فجمع من حوله رهطاً من الحسان يتلهفن على يده وعلى كيس نقوده . وسر العديدات ممن أخفقن فى الزواج منه أن يشاركنه فراشه ، وشاركت بعض الممثلات الباريسيات فى الترفيه عن الملك . واحتج التشارتوريسكيون ، فاعترف بخطاياه وتمادى فيها . وأخيراً قادته خليلة تدعى بانى جرابوفسكا إلى المذبح فى زواج سرى . وبعدها خضعت حياته الجنسية للرقابة الشديدة ، واستطاع أن يبذل اهتماماً أكثر بشئون الحكم والأدب والفنون .

وقد اهتم اهتماماً شخصياً بأعمال وحياة فنانى جيله ومؤلفيه . وحذا حذو كاترين فجمع الصور والتماثيل والكتب ، وبنى قاعة للفن ومكتبة ، وأبرز فى المكتبة تمثالا لفولتير . ووجد عملا للفنانين الوطنيين ، واستقدم غيرهم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا . ولم يستطع بيرانيزى وكانوفا الحضور ، ولكنهما نفذا أعمالا له فى إيطاليا . وقد حول نصف القصر الملكى إلى مدرسة للفن ،

ودبر المال ليمكن شباب الفنانين الواعدين من الدراسة فى الخارج . وأسس قرب وارسو صناعة للبرسلان ضارعت منتجات ميسن وسيفر . وقد ألهم بقدوته أثرياء البولنديين — كآدم تشارتوريسكى ، واليزابث لوبوميرسكا ، وهيلين رادزيفيل ، وغيرهم — ليجمعوا التحف ، ويكلفوا الفنانين بأعمال فنية ، ويحلوا تنويعات الطراز الكلاسيكى الحديث محل روكوك الفترة السكسونية فى بناء قصورهم وزخرفتها . وكان هو ذاته يحبذ مزيجاً من فن الباروك والفن الكلاسيكى ، وبهذا الطراز صمم دومنيكو مرليني قصر لازينكى على مشارف وارسو . وكان المصورون الأجانب أثناء ذلك يدربون جيلا جديداً من الفنانين البولنديين الذين بلغوا مرحلة النضج بعد أن اختفت الحرية البولندية .

أما أول الخطوات التى أفضت إلى تلك الكارثة فكانت العقبات التى وضعها فردريك الأكبر فى طريق اصلاح بولنده لذاتها . وإلى ذلك الحين (١٧٦٧) لم يكن لدى كاترين فيما يبدو نية تقطيع أوصال قطر كبولنده خاضع خضوعاً واضحاً للنفوذ الروسى ، فالتقسيم سيوسع رقعة بروسيا بحيث تغدو عائقاً أشد خطراً مما يمكن أن تكونه بولنده السلافية أمام مشاركة روسيا فى شئون غربى أوربا وثقافتها . لذلك اكتفت بالمطالبة بإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية الكاملة . ولكن فردريك أراد أكثر من هذا . فهو لم يستطع قط أن يروض نفسه على قبول هذه الحقيقة ، وهى أن غربى بروسيا ، الألمانى البروتستنتى فى غالبيته الكبرى ، خاضع للحكم البولندى الكاثوليكى . ومن ثم كان نوع من التقسيم لبولنده هدفاً عنده لايغيب عنه . وأى تقوية لبولنده ، سياسية أو عسكرية ، ستعرقل بلوغ أهدافه ؛ لذلك أيد عملاؤه حق النقض المطلق ، وعارضوا فى تشكيل جيش قومى بولندى ، ورحبوا بالخلافات المحتدمة بين الكاثوليك والمنشقين لأنها تتيح ذريعة للغزو .

وتعاون تعصب الكهنوت الكاثوليكى الرومانى مع خطط فردريك . فقد قاوم كل محاولة تبذل لإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية . وفى « روسيا البيضاء » — التى كانت آنئذ جزءاً من بولنده ، مشتملة على منسك — انتزعت

السلطات الكاثوليكية الرومانية ماثى كنيسة من أتباعها الروم الأرثوذكس وأعطتها لطائفة الموحدين ، ومنعت الجاليا الأرثوذكسية من ترميم كنائسها القديمة وبناء أخرى جديدة . وفى حالات كثيرة فصل الأطفال عن آبائهم لينشأوا على طاعة الكنيسة الرومانية ، وأسيئت معاملة القساوسة الأرثوذكس ، وأعدم بعضهم (٢٤) ، وكان بونياتوفسكى ، وهو ربيب جماعة الفلاسفة الفرنسيين ، ميالا إلى التسامح الدينى (٢٥) ، ولكنه كان عليماً بأن الديت سيقاوم ، بالقوة ان اقتضى الأمر ، أى خطوة للسماح لغير الكاثوليكى الرومان بعضويته ؛ وأحس أنه ينبغى تأجيل اقتراحا كهذا حتى يستطيع تعديل من نوع ما لحق النقض المطلق أن يشد أزره . وأجاب فردريك وكاترين بأنهما لايطلبان من بولنده أكثر مما يمنحانه لأقلياتهم الدينية . وقدم للديت الذى اجتمع فى أكتوبر ونوفمبر ١٧٦٦ التماس من بروسيا وروسيا والدنمرك وبريطانيا العظمى بمنح اخوانهم فى الدين فى بولنده كامل حقوقهم المدنية .

وهنا أثارت بلاغة «كاجيتان سوليتك» أسقف كراكاو ثائرة النواب ، فهبوا غاضبين وطالبوا لا برفض الإلتماس فحسب ، بل بتقديم مؤيديه البولنديين للمحاكمة لأنهم خونة لبولنده ولله (٢٦) . ونجا بجلدهم من الموت نفر حاولوا الدفاع عن الملتمس (٢٧) . وحاول بونياتوفسكى أن يهدىء المجلس بإصدار (نوفمبر ١٧٦٦) نبذة سماها «آراء مواطن صالح» ودعا فيها جميع البولنديين للوحدة القومية ، وأنذرهم بأن الشعب المنقسم على ذاته يحرض على الغزو . ثم رجا فى الوقت نفسه السفير البولندى فى بطرسبرج أن يفصل روسيا عن الدول موقعة الملتمس . وكتب يقول « لو أصروا على هذا (الملتمس) فإنى لا أتوقع غير عشية كعشية (مذبحة) القديس بارتولميو للمنشقين ، وحصاداً من السفاكين أمثال رافياك يغتالوننى . . وستحيل الامبراطوره عباءتى الملكية رداء (للقنطور) نيسوس . وسيكون على أن أختار بين نبذ صداقتها وبين مناصبة وطنى العداء» . وردت عليه كاترين بطريق نيكولاى ربنان سفيرها فى وارسو تقول « لا أستطيع أن أتصور كيف يرى الملك نفسه خائناً لوطنه لمجرد أنه يؤيد مطالب العدل والإنصاف» (٢٨) .

لقد كان يفصلها عن بولنده من البون الشاسع سواء فى المسافة أو التعليم ما لا يتيح لها الشعور بوطيس الغضب والكبرياء البولنديين . فلما ألفت جماعة من نبلاء البروتستنت اتحاداً فى ثورن ، وألف حزب من المتشيعين لآل تشارتوريسكى اتحاداً فى رادوم ، أمرت كاترين ربنن بأن يعرض عليهما حماية روسيا . وتحت ستار هذه الحجة جلب ثمانين ألف مقاتل روسى إلى تخوم بولنده ، وبعضهم إلى وارسو ذاتها .

وعاد الديت إلى الإجتماع فى أكتوبر ١٧٦٧ . وحض الاسقفان زالوسكى وسولتيك النواب على الوقوف بحزم أمام أى تغيير فى الدستور . وهنا قبض ربنن على الأسقفين واثنين من العلمانيين بتهمة إهانة الامبراطورة متخطياً بونياتوفسكى ، ونقلهم إلى كالوجا على تسعين ميلا جنوب غربى موسكو . فاحتج الديت ، وأعلن ربنن أنه إذا لقى المزيد من المعارضة فإنه لن يكتفى بترحيل أربعة أقطاب فقط بل أربعين . وفى ٢٤ فبراير ١٧٦٨ استسلم الديت لتهديدات الحرب وأبرم مع روسيا معاهدة قبل بها كل مطالب كاترين . فمنح المنشقون الحرية الكاملة للعبادة الدينية ، وحقهم فى أن يختاروا لعضوية الديت وللوظائف العامة ، وتقرر أن تنظر الدعاوى القضائية بين الكاثوليك والمنشقين أمام محاكم مختلطة . وسر الديت وكاترين وفردريك بتثبيت المعاهدة لحق النقض المطلق ، مع بعض استثناءات للتشريع الاقتصادى . وقبل الديت كاترين حامية لهذا الدستور الجديد ، ولقاء هذا ضمنت كاترين الوحدة الإقليمية لبولنده ما استمر هذا الإتفاق . واغتبطت لأنها لم تكتف بمنح بولنده نصيباً من الحرية الدينية أكبر حتى مما تمتعت به انجلتره ، بل أنها أحبطت خطة فردريك لتقسيم بولنده . وتلقى بونياتوفسكى تهانى جماعة الفلاسفة وازدراء شعبه .

٤ — التقسيم الأول

اتفق الوطنيون والقساوسة البولنديون ١٧٦٨ — ٧٢ مع فردريك على عدم قبول الموقف . وأدان الأكليروس الكاثوليكى الرومانى بقوة تسليم استقلال بولنده الذاتى لامرأة ملحدة روسية . واستنفر البولنديين رجلان ،

أستف كامر فنيبك المسمى آدم كراسنسكى، ويوزف بولاسكى (أبوكازيميرولاسكى الذى قاتل دفاعاً عن أمريكا) ، بالعظات والنشرات ليؤكدوا من جديد حريتهم السياسية ودكتاتوريتهم الدينية . فما أنقضى أسبوع على استسلام الديت لربنن حتى ألفت جماعة من البولنديين (٢٩ فبراير ١٧٦٨) اتحاد «بار»— وهى مدينة على الدنيستر فى أوكرانيا البولندية . وكان الأقطاب الذين مولوا الحركة مدفوعين بكراهيتهم لكاترين والملك ، وكان « الجمهور الأبله » كما لقب فردريك أتباعهم يضطرم غيرة على المذهب الحق الأوحد ، وتردد صدى هذه الحماسة فى شعر الشعراء يتحسرون فى مراثى حزينة على إذلال بولنده و « ارتداد » ملكها . وبعثت تركيا والنمسا للوطنيين السلاح والمال ، وأقبل دموريه من فرنسا لينظمهم فى وحدات مقاتلة . وانضم البولنديون الراغبون فى رد الأسرة السكسونية للعرش إلى الحركة التى ما لبثت أن انتشرت إلى مواقع متفرقة فى طول البلاد وعرضها . وكتب ربنن إلى كاترين يقول « ان بولنده بأسرها اشتعلت ناراً » . وفكر بونيا توفسكى فى الانضمام إلى الاتحاد ، ولكن أعضاءه الغلاة المتهورين نفروه وأقصوه عنه بالمطالبة بخلعه إن لم يكن بإعدامه [٢٩] . وإذا جاز أن نصدق فولتير [٣٠] ، فإن ثلاثين من أعضاء الاتحاد أقسموا فى تشستوكوفا هذا القسم :

« نحن الذين أثارتنا غيرة مقدسة دينية ، والذين صممنا على الثأر لله والدين والوطن ، بعد أن أسخطنا ستانسلاس أوغسطس ، محتقر الشرائع السماوية والأرضية ، وراعى الكفار والمهرطقين ، نتعهد ونقسم أمام صورة أم الرب المقدسة المعجزية بأن نستأصل من وجه الأرض شأفة من يدنسها بوطئة الدين . فليساعدنا الرب ! » .

وأمر ربنن الجيش الروسى بإخماد الفتنة ، فطرد الاتحاديين وراء الحدود التركية وأحرق مدينة تركية . فأعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٧٦٨) وطالبت بجلاء الروس عن بولنده وتحريرها . واغتنم القوزاق فرصة الاضطراب الشديد ليغزوا أوكرانيا البولندية ، فبطشوا بملاك الأرض ، ووكلائهم اليهود ، والفلاحين الكاثوليك الرومان أو البروتستنت ، فى مهرجان من

التقتيل العشوائى ، فى مدينة واحدة قتلوا ستة عشر ألف رجل وامرأة وطفل . ورد الاتحاديون بقتل من وصلت إليه أيديهم من الروس والمنشقين ، وهكذا عانى البروتستنت واليهود من خطر مضاعف . فى هذه السنوات بجملتها (١٧٦٨ — ٧٠) هلك خمسون ألفاً من سكان بولنده سواء فى المذابح أو المعارك (٣١) .

وبدأت كل الأطراف الآن حديث التقسيم . أما الاتحاديون فقد اتهمهم أعداؤهم بأنهم وافقوا على تقسيم بولنده فيما بينهم وبين حلفائهم (٣٢) . فى فبراير ١٧٦٩ أرسل فردريك إلى سنانت بطرسبرج اقتراحاً بتقسيم بولنده بين روسيا وبروسيا والنمسا ، واشترطت كاترين فى ردها أن تمد بروسيا والنمسا يد العون لروسيا لطرد الترك من أوربا ، لكى توافق على أن تختص بروسيا بذلك الجزء من بولنده الذى يفصل بروسيا الكبرى عن بروسيا الشرقية ، أما باقى بولنده فيخضع للحماية الروسية (٣٣) ، ولكن فردريك تردد . أما شوازيل المتحدث باسم فرنسا فقد اقترح على النمسا أن تستولى على الأقاليم البولندية المجاورة للمجر . ورأتها النمسا فكرة مواتية فى وقت موات ، وعليه فى أبريل ١٧٦٩ احتلت إقليم سبتز البولندى ، الذى كانت المجر رهنته لبولنده فى ١٤١٢ ولم يفك رهنه قط (٣٤) . وفى ١٧٧٠ اقترح الترك الذين كانوا آنئذ يقاتلون بصفتهم مدافعين عن بولنده — على النمسا تقسيم بولنده بين النمسا وتركيا (٣٥) .

وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة ارتضت الدول الغربية فكرة تقسيم بولنده نتيجة لا مناص منها لفوضاها السياسية ، وأحقادها الدينية ، وعجزها الحربى و « أدرك كل رجل دولة فى القارة أن الكارثة واقعة لامحالة » (٣٦) . ولكن البولنديين من خصوم الاتحاديين فى هذا الوقت أوفدوا عضواً فى الديت ليطلب إلى الفيلسوف الاشتراكى مابلى ، وإلى عدو جماعة الفلاسفة روسو ، أن يضعا دستوراً مؤقتاً لبولنده جديدة . وقدم مابلى توصياته فى ١٧٧٠ — ٧١ ، أما روسو فقد فرغ من « دستور بولنده » فى ابريل ١٧٧٢ — بعد شهرين من التوقيع على أولى معاهدات التقسيم .

واستمتع اتحاد بار بلحظات من النشوة قبل انهياره . ففى مارس ١٧٧٠ ، ومن مدينة فارنا التركية ، أعلن خلع بونياتوفسكى . وفى ٣ نوفمبر ١٧٧١ ، اعترض بعض — الاتحاديين طريقه وهو يغادر منزل عم له فى الليل ، وتغلبوا على حرسه ، وقتلوا أحدهم رمياً بالرصاص ، ثم جروا الملك من داخل عربته ، وأحدثوا قطعاً فى رأسه بضربة سيف ، ثم اختطفوه من عاصمة ملكه . ولكن دورية من الشرطة هاجمتهم فى غابة بيلنى ، وأثناء العراك هرب بونياتوفسكى ، واتصل بالحرس الملكى ، فأتى رجاله وعادوا به إلى قصره مشعث الشعر ينزف دماً فى الخامسة صباحاً . وهكذا قضى على كل احتمالات المصالحة بين الحكومة والاتحاد . ولجأ بونياتوفسكى إلى المساعدة الروسية ، وقمع الاتحاد، وبقيت منه بقية فى تركيا — الهلال يحمى الصليب (١٧٧٢)[٣٧]

على أن تقدم جيوش روسيا إلى البحر الأسود والدانوب أزعج كلا من بروسيا والنمسا . فلا فردريك الثانى ولا جوزف الثانى كانا مغتبطين بتوقع سيطرة روسيا على البحر الأسود ، وأسوأ من ذلك على الآستانة . وكانت بروسيا قد تعهدت فى معاهدتى ١٧٦٤ و ١٧٦٦ بأن تساعد روسيا إذا هوجمت ، وكانت تركيا من الناحية الشكلية هى المعتدى فى حرب ١٧٦٨ الروسية التركية ؛ وكانت بروسيا تعرض خزانتها للإفلاس بإرسالها المعونات المالية لروسيا . أما النمسا التى ساءها دخول القوات الروسية فلاشيا فكانت تهدد بالتحالف مع تركيا ضد روسيا ؛ فى تلك الحالة كانت روسيا ستنتظر من بروسيا أن تهاجم النمسا . ولكن فردريك كان قد ضاق ذرعاً بالحرب . لقد خاض حربين ليستولى على سيليزيا ويحتفظ بها ، فلم يخاطر بها الآن ؟ ومن ثم آثر الطرق الدبلوماسية . وتساءل ألا يمكن استرضاء الدول الثلاث بحصص يلتهمونها من أرض بولنده ؛ لو أن الأمور تركت تجرى مجراها والسفير الروسى يحكم بولنده فعلا لما كانت المسألة إلا مسألة وقت حتى تبتلع روسيا ذلك البلد كلية متسترة وراء أى حجة . فهل ما زال فى الإمكان الحيلولة دون هذا ؟ بلى ، إذا ارتضت كاترين أن تأخذ بولنده الشرقية فقط ، وتدع فردريك يأخذ بولنده الغربية وتنسحب من الدانوب . وهل يخفف

من شره يوزف للقتال أن يعطى نصيباً من الغنيمة ؟

وعليه ففى يناير ١٧٧١ اقترح الأمير هنرى ، أخو فردريك ، الخطة على الدبلوماسيين الروس فى سانت بطرسبرج . واعترض بنن بأن روسيا قد ضمنت وحدة بولنده الإقليمية ، فذكروه بأن هذا الضمان كان رهناً بالتزام بولنده بدستورها الجديد وتحالفها مع روسيا ، وأن هذا الالتزام انقطع بانضمام العدد الكبير من النواب لاتحاد بار المتمرد . ومع هذا لم ترض كاترين عن الخطة . فأى شىء يدعوها لإعطاء فردريك جزءاً من بولنده بينما قد تأخذ هى الكل بعد قليل ؛ ولم تدعم قوة بروسيا بمزيد من الأرض ، والموارد ، والثغور البلطية ، و مزيد من الجند الفارعين ، ولكنها لم ترد خوض حرب مع فردريك ، فقد كان لديه ١٨٠,٠٠٠ رجل تحت السلاح ؛ وآثرت على ذلك أن تجعله يمنع يوزف من الاتحاد مع تركيا ضد روسيا ، فهدفها الحاضر ليس بولنده بل البحر الأسود . وعليه فى ٨ يناير ١٧٧١ ، أشارت لهنرى عرضاً فى حفلة إلى موافقتها مبدئياً على خطة فردريك .

وانقضى عام قبل أن تتمكن المفاوضة من الفصل فى تقسيم الغنيمة . فقد أراد فردريك أن يأخذ دانتزج ، فاعترضت كاترين ؛ وكذلك بريطانيا التى كانت تجارتها مع البلطيق ترسو على ذلك الثغر . وفى غضون هذا عبأت النمسا قواتها ، وتحالفت سراً مع تركيا . وفى ١٧ فبراير ١٧٧٢ وقع فردريك وكاترين « اتفاقاً » على تقسيم بولنده . وألانت كاترين جانب يوزف بتخليها عن جميع مطالب روسيا فى فلاشيا ومولدافيا ؛ ثم إن رداءة محصول ١٧٧١ جعل من المستحيل عليه إطعام جيشه . وكانت ماريا تريزا من جهة أخرى تتوسل إلى ولدها بكل دموعها لتمنعه من الاشتراك فى اغتصاب بولنده ، غير أن فردريك وكاترين أكرهاه على الموافقة بشروعهما فى الاستيلاء الفعلى على الأقاليم التى خصا نفسيهما بها . وفى ٥ أغسطس ١٧٧٢ أضاف يوزف توقيعه على ميثاق التقسيم .

أما المعاهدة فبعد الديباجة التى ابتهلت إلى الثالوث المبارك ، وافقت على أن تحتفظ بولنده بثلثى أرضها وثلث سكانها . واستولت النمسا على بولنده الجنوبية بين فولينيا والكربات ، مع غاليسيا وبودوليا الغربية — ٢٧,٠٠٠

ميل مربع ، و ٢,٧٠٠,٠٠٠ — نسمة . وأخذت روسيا « روسيا البيضاء » (بولنده الشرقية إلى دوينا ودنيبر) ٣٦,٠٠٠ ميل مربع ، و ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذت بروسيا « بروسيا الغربية » فيما عدا دانتزج وتورن ١٣,٠٠٠ ميل مربع و ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذ فردريك أصغر نصيب ، ولكنه كان قد ألزم المتآمرين بالسلام ، و « خاط » — على حد قوله بروسيا الغربية وبروسيا الشرقية مع براندنبرج . وقد قال الوطنى ترايتشكى إن فردريك على أية حال لم يفعل أكثر من أنه رد إلى ألمانيا « معقل الفرسان التيوتون ، — وادى فايشيزال الجميل — الذى انتزعه الفرسان الجرمان من البرابرة فى الأيام الخالية» (٣٨) وذكر فردريك أوربا بأن سكان بروسيا الغربية كثرتهم العظمى ألمانية وبروتستنتيه ، أما كاترين فقد ذكرت أن الإقليم الذى أخذته يسكنه كله تقريباً اتباع الكنيسة الرومية الكاثولوليكية المتحدثون بالروسية (٣٩) .

وسرعان ما احتلت الدول الثلاث أنصبتها من الغنيمة بجيوشها . واستنجد بونياتوفسكى بالدول الغربية لتمنع التقسيم ، ولكنها كانت فى شغل شاغل عنه ؛ ففرنسا تتوقع الحرب مع انجلتره ، وقد ترددت فى معارضة حليفتها النمسا ، وانجلتره تواجه الثورة الوليدة فى أمريكا ، والخطر الذى قد يأتيها من فرنسا وإسبانيا ؛ ونصح جورج الثالث بونياتوفسكى بأن يصلى لله (٤٠) . وطالبت الدول صاحبة التقسيم بدعوة الديت ليصدق على التقسيم الجغرافى الجديد ؛ فماطل بونياتوفسكى عاماً ، وأخيراً دعا الديت للاجتماع فى جرودنو. ورفض الكثير من النبلاء والأساقفة حضوره ، وبعض الذين جاءوا واحتجوا نفوا إلى سيبيريا ؛ وقبل غيرهم الرشا ؛ وحولت البقية المتخلفة من الديت نفسها إلى اتحاد كونفدرالى (يبيح فيه القانون البولندى حكم الأغلبية) ، ووقع الديت المعاهدة التى نزلت عن الأقاليم المنتزعة من بولنده (١٨سبتمبر ١٧٧٣) وبكى بونياتوفسكى ووقع كما بكت ماريا تريزا ووقعت .

وقبلت أوربا الغربية هذا التقسيم الأول على أنه البديل الوحيد لابتلاع روسيا لبولنده ابتلاعاً تاماً . ويقال إن بعض الدبلوماسيين « أذهلهم اعتدال

الشركاء، الذين اكتفوا بالثلث فى حين كان الكل رهن إشارتهم إن طلبوه»[٤١] .
واغتبط جماعة الفلاسفة لأن بولنده المتعصبة عاقبها مستبدوهم المستنيرون ، ورحب فولتير بالتقسيم باعتباره هزيمة تاريخية للكنيسة الكاثوليكية [٤٢] ، ولكنه بطبيعة الحال لم يكن سوى انتصار للقوة المنظمة على العجز الرجعى .

٥ — التنوير البولندى ١٧٧٣ — ٩١

كان على بونياتوفسكى أن يختار الآن بين روسيا وبروسيا حامياً له وسيداً عليه . فاختار روسيا ، لأنها أكثر بعداً ، ولأن روسيا دون غيرها تستطيع منع فردريك من الاستيلاء على دانتزج وتورن . وكانت كاترين تواقة إلى الحيلولة دون مزيد من توسع بروسيا ، التى كان جيشها العقبة الكؤود فى طريق التوسع الروسى غرباً . لذلك أمرت سفيرها فى وارسو بأن يقدم العون لبونياتوفسكى بكل طريقة تتفق ومصالح روسيا ، وأرسلت إلى الملك المقترحات التى وضعها بنين من قبل لدستور بولندى أيسر تنفيذاً . وقد احتفظ هذا الدستور بنظام الملكية الانتخابية وحق النقض المطلق ، ولكنه دعم قوة الملك بأن أقام برآسته ، وكأداته التنفيذية ، مجلساً دائماً من ستة وثلاثين عضواً ، ينقسم إلى وزارات للشرطة والعدل والمالية والشئون الخارجية والحرب ؛ ثم نص على إنشاء جيش نظامى من ثلاثين ألف مقاتل . وخاف النبلاء أن يهدد جيش كهذا سيطرتهم على الملك ، فخفضوا العدد إلى ثمانية عشر ألفاً ، على أن الديت الذى انعقد فى ١٧٧٥ صدق على الدستور الجديد مع هذا الاستثناء واستثناءات صغيرة أخرى ، وأصبح فى وسع بونياتوفسكى الآن أن يشرع فى رد شىء من العافية على الأمة .

واستمر الفساد ولكن الفوضى قلت ، فأمكن التغلب على عصابات قطاع الطرق ، ونما الاقتصاد القومى . وعمقت الأنهار لتسمح بمرور السفن الكبيرة ، وشقت الترع لتصل بين الأنهار ، وأكملت فى ١٧٨٣ « قناة ملكية» تربط البحرين البلطى والأسود . وازداد سكان بولنده بين عامى ١٧١٥ و ١٧٧٣ من ٦,٥٠٠,٠٠٠ إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠ ، وتضاعف دخل الدولة . وتقرر نظام للمدارس القومية ، وأعدت الكتب المدرسية وزود بها التلاميذ ،

ومنحت الهبات من جديد لجامعتى كراكاو وفلنو وبعث فيهما النشاط ، وأسست الدولة كليات لتخريج المعلمين ومولتها . وكان يونياتوفسكى يحب أن يحيط نفسه بالشعراء والصحفيين والفلاسفة . كتب كوكس يقول « إن الملك يولم كل خميس للأدباء المشهورين بعلمهم وقدراتهم ، وجلالته يترأس بنفسه المائدة » (٤٣) . ويقود النقاش فى الكتب والأفكار . وقد استضاف ثلاثة مؤلفين ليعيشوا معه ، ورفع دخل مؤلفين آخرين فى صمت (٤٤) . وكان آلاف البولنديين ، مع تقديمهم فروض الإجلال للكنيسة — يقرءون لوك ومونتسكيو وفولتير وديدرو ودالامبير وروسو . وهكذا أرسيت أسس التنوير البولندى أو الستانسلافى .

وقد اجتذب يسوعى يدعى آدم ناروشفتش أذن الملك بشعره ؛ فرقى أسقفاً ، ولكنه واصل نظم الشعر العاطفى للطبيعة ، وما زال « ترنيمته للشمس » و « فصوله الأربعة » تحبب فيه من يستطيعون قراءته فى الأصل . وقد استعملت « قصائده الهجاءة » ألفاظاً شعبيه رابيلية الطابع أحياناً أو نابية . وطلب إليه ستانسلاس أن يكتب تاريخاً لبولنده يجمع بين السهولة والعمق . فأنفق الشاعر فى هذا العمل تسع سنين ، وأخرج فى ستة مجلدات (١٧٨٠ — ٨٦) أثراً يمتاز بتوثيقه الدقيق . ولكن حماسته فترت بعد التقسيم الثانى ، وأصيب بالاكتئاب ، ولم يعمر أكثر من سنة بعد التقسيم الأخير (٤٥) .

أما أبرز كتاب العهد البولنديين فهو اجناتسى كراسيكى . وقد اكتسب فى رحلاته صداقة فولتير وديدرو (٤٦) وأصبح قسيساً ، ثم رئيساً للأساقفة آخر الأمر ، ولكن ستانسلاس حثه على إطلاق العنان لمواهبه الشعرية . فكتب ملحمة هازلة سماها « ملحمة الفيران ، انتقد فيها نقداً لاذعاً حروب جيله وصورها معارك بين الجرذان والفيران . وفى قصيدته «هوس الرهبنة» (١٧٧٨) هزأ بالخصومات الديرية وأساءتها الفتاكة هى الكتب اللاهوتية . ثم اتجه إلى النثر ، فروى فى « مغامرات السيد نيقولا المكتشف» (١٧٧٦) كيف اكتشف نبيل بولندى شاب ، مزود بكل حصيلة العصر وعواطفه ، تحطمت به السفينة على جزيرة غريبة ، أن الرجال والنساء يمكن أن يكونوا

مجدين فضلاء رغم وجودهم فى « حالة الفطرة » . وقد اقتفى خطى هومر وسويفت وديفو فى أعماله هذه ، ثم اقتبس أسلوب أديسون وأخرج سلسلة من صور الحياة اليومية ، منها « بان بودستولى » (١٧٧٨ وما بعدها) التى تصف حياة جنتلمان ومواطن مثالى . وفى « قصص خرافية وأمثال (١٧٧٩) تحدى فيدروس ولافونتين ، وهاجم فى تهكم لاذع خراب الذمة والوحشية المستشرية من حوله . وكانت آخر نصيحة له هوراسية النزعة ، « التمس لك ركناً هادئاً ، ودع السعادة تأتيك خلسة » (٤٧) .

ومع أن تأثير التنوير الفرنسى على ناروشفتش وكراسيكى قد حد منه سلطان الدين ، إلا أنه ظهر بشكل قاطع فى ستانسلاس ترمبيكى ، الذى لم يذكر الدين قط إلا بروح العداء . وقد مجد شعره الطبيعة ، ولكن ليس فى تلك المظاهر السارة التى كثيراً ما تحرك العواطف الرقيقة ؛ فقد آثر جوانبها الأكثر جموحاً ووحشية ، إسرافها المجنون فى إنتاج النبات والحيوان ، عواصفها وسيولها ، صراع الحياة مع الحياة والمأكول مع الآكل ؛ واقتبست خرافاته شكلها من لافونتين ولكن روحها منقول عن لوكريتيوس . وقد أكسبته قوة شعره ورهافته وصقله مكانة مرموقة فى هذا الازدهار الأدبى . وسانده بونياتوفسكى فى جميع محنه ، وعند خلع الملك رافقه الشاعر فى المنفى ، ومكث معه حتى مات .

وكان هناك شعر دينى كثير ، لأن الدين كان العزاء الأخير للبولنديين فى خطوبهم الشخصية والقومية . وقصائد فرانتشيشيك كارينسكى المسماة « أغنية الصباح» و « أغنية المساء » و« ولادة المسيح » أدب كما أنها تعبد . أما فرانتشيشيك كثيازنين فكان يتنقل فى غير عناء بين هذين العدوين القديمين ، الدين والجنس ، فحين أشرف على دخول القسوسية اكتشف أناكريون والحب ؛ ونشر قصائد غزلية « إيروتيكا » (١٧٧٠) ، ونشد سعادة الدنيا ، ثم عاد إلى الدين ، ومات مجنوناً . إن محاولة التوفيق بين النقيضين قد تفضى إلى الجنون كما تفضى إلى الفلسفة .

أما فى مضمار الدراما فإن أبرز رجالها هو فويتسيش بوجو سلافسكى ،

الذى يكرم وطنه ذكراه باعتباره «أبا المسرح البولندى» ؛ ويجوز لنا أن نسميه « جاريك » بولنده ، ولكن البولنديين لو سئلوا لوصفوا جاريك بأنه بوجوسلافسكى انجلتره . وكان فيما يبدو أول بولندى كرس حياته كلها للمسرح ، ممثلا ، وكاتباً مسرحياً ، ومخرجاً ، ومديراً لمسارح دائمة فى وارسو ولفوف ، ومديراً لشركات نشرت تذوق الدراما فى طول البلاد وعرضها ووراء الحدود . قدم شكسبير وشريدان مترجمين ، وألف هو نفسه كوميديات ما زال بعضها يمثل على المسرح البولندى . وكانت أفضل تمثيليات هذه الفترة هى «عودة النائب» بقلم جوليان أورسين نيمتشفتش الذى كان هو نفسه نائباً ، فقد صور جانبي الأزمة السياسية تصويراً دراميا فى حب نائب من دعاة الإصلاح لفتاة يدافع أبواها عن امتيازات الأقطاب وأساليب العيش فى الماضى .

وآخر رجال التنوير البولنديين وأعظمهم هو هوجو كوللونتاج . نقل إليه تعليمه عدوى أفكار جماعة الفلاسفة ، ولكنه ستر هرطقاته ستراً كافياً حتى حصل على وظيفة كاهن مريحة فى كراكاو . وعينه يونياتوفسكى (١٧٧٣) عضواً فى لجنة للتعليم ، وضع لها كوللونتاج وهو لايزال فى الثالثة والعشرين برنامجاً لإصلاح تعليمى يتفق وخير برامج جيله . وحين ناهز السابعة والعشرين وكل بإعادة تنظيم جامعة كراكاو ، وأنجز المهمة فى بضع سنين ، ثم بقى فى الجامعة مديراً لها . وفى « خطابات من كاتب مجهول إلى رئيس الديت» (١٧٨٨ — ٨٩) ، وفى « القانون السياسى للأمة البولندية» (١٧٩٠) قدم مقترحات أصبحت أساساً لدستور ١٧٩١ .

وكافحت بولنده ، بفضل حث شعرائها ومعلقيها ، لتنير نفسها وتصبح دولة قوية قادرة على الدفاع عن ذاتها . وحانت الفرصة حين عرض فردريك وليم الثانى — خلف فردريك الثانى — على «ديت السنين الأربع» الذى استمر انعقاده من ١٧٨٨ إلى ١٧٩٢ تحالفاً تتعهد فيه بروسيا بأن يحمى جيشها القوى بولنده من أى تدخل أجنبى . وكانت روسيا فى شغل بحربها مع تركيا والسويد ، فالآن قد تستطيع بولنده أن تعتق نفسها من خنوعها الطويل لكاترين ، وتتخلص من أعمال السلب والنهب التى اقترفها الجنود الروس على الأرض

وكافحت بولنده ، بفضل حث شعرائها ومعلقيها ، لتنير نفسها وتصبح دولة قوية قادرة على الدفاع عن ذاتها . وحانت الفرصة حين عرض فردريك وليم الثانى — خلف فردريك الثانى — على «ديت السنين الأربع» الذى استمر انعقاده من ١٧٨٨ إلى ١٧٩٢ تحالفاً تتعهد فيه بروسيا بأن يحمى جيشها القوى بولنده من أى تدخل أجنبى . وكانت روسيا فى شغل بحربها مع تركيا والسويد ، فالآن قد تستطيع بولنده أن تعتق نفسها من خنوعها الطويل لكاترين ، وتتخلص من أعمال السلب والنهب التى اقترفها الجنود الروس على الأرض

البولندية طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة . وحل الديت مجلس بونياتوفسكى الدائم رغم احتجاجاته ، ووافق على أن يجند بإذن الديت جيش من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأمر الجيش الروسى بالرحيل عن بولنده فوراً (مايو ١٧٨٩) ، إماكاترين التى كانت فى حاجة لجميع قواتها فى مواقع أخرى فلم تقاوم ، ولكنها أقسمت على الانتقام . وفى ٢٩ مارس ١٧٩٠ أبرم الديت تحالفاً مع بروسيا .

وكان بونياتوفسكى هو أيضاً قد ثمل الآن بجو الحرية . فنبذ ولاءه لكاترين وتزعم صياغة دستور جديد . وقد نصت شروطه على جعل الملكية وراثية ، ولكنها ضمنت وراثة البيت المالك السكسونى للعرش بعد موت بونياتوفسكى الذى لم يعقب . وتقرر أن توسع سلطات التاج التنفيذية بإعطاء الملك حق النقض المعلق — أى حق منع قرار وافق عليه دايت من أن يصبح قانوناً حتى يؤكده الدايت التالى . ونص على أن يعين الملك وزراءه والأساقفه ، وأن يتولى قيادة الجيش ، وعلى أن ينتخب عدد صغير من المواطنين وغيرهم من أهل المدن نواباً . أما الديت فيتألف من مجلسين ؛ مجلس للنواب له وحده الحق فى وضع القوانين ، ومجلس للشيوخ — يتألف من الأساقفه وحكام الأقاليم ووزراء الملك — تشترط موافقته على أى قانون . أما حق النقض المطلق فتحل محله قاعدة الأغلبية . ويعترف بالمذهب الكاثوليكى الرومانى ديناً سائداً للأمة ، ويعد الارتداد عنه جريمة ، وفيما عدا ذلك فحرية العبادة مكفولة للجميع . وبقيت القنية ، ولكن للفلاحين الآن أن يستأنفوا دعاواهم من المحكمة الوراثية إلى محكمة إقليمية أو قومية . وكان تأثير الدستور الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٧ — ٩٨) واضحاً فى هذه التوصيات . ذلك أن البولنديين الذين حاربوا دفاعاً عن المستعمرات الأمريكية كانوا قد هيأوا ذهن بونياتوفسكى ، ولم يكن قد نسى قراءته للوك ومونتسكيو وجماعة الفلاسفة .

ورغبة فى ضمان التصديق على مقترحاته لجأ بونياتوفسكى إلى الحيلة ؛ ذلك أن كثيراً من أعضاء الديت ذهبوا إلى مواطنهم لقضاء عطلة عيد القيامة عام ١٧٩١ ، فدعاه الملك للانعقاد فى ٣ مايو ، وهو تاريخ أبكر من أن

يتيح للأعضاء البعيدين العودة إلى وارسو لحضور الإفتتاح الجديد ؛ أما النواب القريبون الذين وصلوا فى الميعاد فكان أكثرهم أحرار النزعة يمكن الاعتماد عليهم فى تأييد الدستور الجديد . وعرض عليهم فى القصر الملكى بمجرد اجتماعهم ، فقوبل بتصفيق جارف ، وصدق عليه بأغلبية كبيرة . وقد تذكر البولنديون الوطنيون ذلك اليوم ، الثالث من مايو ١٧٩١ ، فى فخر واعتزاز ، وخلدوه فى الأدب والفن والأغانى البولندية .

٦ — تمزيق بولنده ١٧٩٢ — ٩٥

اعترفت جميع الدول بالدستور الجديد إلا روسيا . ووصفه إدموند بيرك بأنه « أنبل امتياز نالته أمة فى أى زمان » وصرح بأن ستانسلاس الثانى قد تبوأ مكاناً فى التاريخ بين عظماء الملوك ورجال الدولة (٤٨) ، ولكن هذه الحماسة ربما كانت انعكاساً لابتهاج انجلتره بهزيمة كاترين .

وأخفت الامبراطورة حينا عداءها لبولنده الجديدة ، ولكنها لم تغفر طرد جيشها منها على عجل ، ولا إحلال النفوذ البروسى محل الروسى فى الشئون البولندية . فلما أنهت معاهدة ياسى (٩ يناير ١٧٩٢) حربها مع تركيا ، وتحررت من الخوف من شريكيها السابقين فى الجريمة — بروسيا والنمسا — لتورطهما فى الحرب ضد فرنسا الثائرة (ابريل ١٧٩٢) ، تلفتت حولها تبحث عن مدخل جديد إلى بولنده .

وقد هيأه لها البولنديون المحافظون ، إذ وافقوا كاترين كل الموافقة على أن دستور بونياتوفسكى قد صدق عليه ديت جمع على عجل بحيث لم يستطع أشراف كثيرون حضوره . وكان فيلكس بوتوكى وغيره من الأقطاب ساخطين أشد السخط على التخلى عن حق النقض المطلق الذى ضمن لهم القوة أمام السلطة المركزية ، ولم يكونوا راغبين فى النزول عن حقهم فى انتخاب الملك ، وفى الهيمنة عليه تبعاً لذلك . ورفض بوتوكى حلف يمين الولاء للمرسوم الجديد ، ثم قاد جماعة من النبلاء إلى سانت بطرسبرج وطلب إلى الإمبراطرة أن تساعدهم على إعادة الدستور الأقدم (دستور ١٧٧٥) الذى

سبق أن تعهدت بحمايته . فأجابت بأنها لاتريد التدخل فى بولنده بناء على طلب أفراد قليلين ، ولكنها ستنظر فى نداء من أقلية بولندية منظمة يعتد بها ، وأحيط فردريك وليم الثانى علماً بهذه المفاوضات ، وكان متورطاً فى الحرب ضد فرنسا ، كارهاً لخوض حرب ضد روسيا ، فأخبر الحكومة البولندية (٤ مايو ١٧٩٢) بأنها إن كانت تنوى الدفاع عن دستورها الجديد بقوة السلاح فعليها ألا تتوقع الدعم من بروسيا [٤٩] . وقفل بوتوكى إلى بولنده ، وألف (١٤ مايو ١٧٩٢) ، فى بلدة بأوكرانيا ، اتحاد تارجوفيكا ، ودعا للانضواء تحت لوائه كل الذين يريدون إعادة الدستور القديم . ولقب اتباعه أنفسهم بالجمهوريين ، وأدانوا تحالف بولنده مع بروسيا ، وأثنوا على كاترين ، والتمسوا بركتها وطلبوا جيشها .

فأرسلتهما جميعاً ، وزحف الاتحاديون على وارسو بعد أن توفر لهم هذا الدعم . وكانت دعوتهم إلى « الحرية » قد أحدثت بعض التأثير ، لأن مدناً عديدة استقبلتهم استقبالها للمحررين ؛ وفى تريسابول (٥ سبتمبر) رحب القوم ببوتوكى كأنه فعلا ملك بولنده الجديد . ودعا بونياتوفسكى الديت أن يعطيه كل السلطات التى تلزم للدفاع . فعينه دكتاتوراً ، ودعا كل الذكور البالغين من البولنديين للخدمة العسكرية ، ثم ارفض . وعين بونياتوفسكى ابن أخيه ، الأمير يوزف بونياتوفسكى ذا التسعة والعشرين عاما ، قائداً أعلى للجيش الذى وجده مفتقراً إلى التدريب ومجهزاً أسوأ تجهيز . وأمر يوزف جميع كتائب الجيش بأن تنضم إليه فى لوبار على نهر سلوتش ، ولكن القوات الروسية كانت قد طوقت الكثيرين فلم يستطيعوا الحضور ، والذين حضروا كانوا أضعف من أن يقفوا الزحف الروسى . وتقهقر الشاب إلى بولون ، مركز إمداداته تقهقراً منظماً أتاحه قتال المؤخرة الباسل بقيادة تاديوس كوتشيوسكو ، الذى كان قد حارب من قبل فى صفوف المستعمرات فى أمريكا ، وكان الآن وهو فى السادسة والأربعين عريقاً فى أمجاد الوطنية والحرب .

وفى ١٧ يونيو ١٧٩٢ التقى البولنديون بجيش روسى كبير عند زيلنتسى ، وهزموه فى أول معركة حامية انتصرت فيها بولنده منذ أيام سوبيسكى . هنا أيضاً أثبت كوتشيوسكو مهارته ، باستيلائه على ربوة سيطرت منها مدفعيته على ساحة المعركة ؛ أما يوزف ، الذى كان إلى الآن موضع الريبة فى كفايته من مرءوسيه الذين فى مثلى عمره ، فقد كسب احترامهم بقيادته احتياطيه من الجنود بشخصه ليكره الروس على التقهقر . وأثلج نبأ النصر صدر بونياتوفسكى ، ولكن كاد يغلب هذا النبأ نبأ آخر بأن الأمير لودفج فورتمبرج قائد الجيش البروسى الموكل بالقوات البولندية فى لتوانيا ، قد هرب من موقعه تاركاً جنوده فى حالة من الفوضى أتاحت للروس فى ١٢ يونيو الاستيلاء على فلنو عاصمة لتوانيا دون مشقة .

لم يبق من أسباب الدفاع عن بولنده الآن غير جيش يوزف . وكانت مؤنه وعتاده من الضآلة بحيث اضطرت أفواجه إلى الصيام أربعا وعشرين ساعة ، ولم تملك المدفعية غير اثنى عشر صندوقاً من الذخيرة . فأمر الأمير بالتقهقر إلى دوبنو ؛ فلما رمى بالجبن ثبت عند دوبينكا (١٨ يوليو) واستطاع بجيشه البالغ ١٢,٥٠٠ مقاتل أن يتعادل مع ٢٨,٠٠٠ مقاتل روسى . ثم تقهقر بنظام حسن إلى كوروف ، حيث انتظر وصول التعزيزات والمؤن التى وعده بها الملك .

ولكن ستانسلاس كان قد يئس . ذلك أن رفض فردريك وليم الثانى أن ينفذ شروط الحلف البروسى البولندى ، وخيانة الأمير لودفج ، وهروب المئات من الجيش الذى جمعه فى براجا — كل أولئك كان فوق ما تطيقه روحه التى لم تكن يوماً ما شديدة البسالة . وعليه فقد أرسل نداء شخصياً لكاترين يلتمس شروطاً مشرفة ، وكان جوابها (٢٣ يوليو) إنذاراً نهائياً يشترط عليه الانضمام إلى اتحاد تارجوفيكا وإعادة دستور ١٧٧٥ . وقد صادمته لهجتها التى لم تعرف هوادة ولا ليناً ؛ أفهذه هى المرأة التى استجابت يوماً لغرامه الطائش ؟

وكان حنانه هو المسيطر عليه الآن . فلقد فكر فى المقاومة ، وفى التسلح والمضى إلى الجبهة ليقود دفاعاً يائساً ؛ ولكن زوجته ، وأخته ، وابنة أخية ، اشتد بكاؤهم لفكرة موته وما يجره عليهم من الوحدة والأسى ، حتى وعد الملك بأنه سيسلم . ثم ما جدوى المقاومة بعد هذا كله ؟ فبعد أن قطع الأمل فى أى معونة من بروسيا — فى وقت توقع فيه الهجمات على الجبهة الغربية العزلاء — ، كيف تستطيع بولنده الوقوف فى وجه روسيا ؟ ألم يحاول جاهداً أن يثنى الديت عن الاستخفاف بكاترين والمغامرة بكل شىء اعتماداً على وعود بروسيا ؟ ألم يلح فى طلب جيش كبير حسن التجهيز ، وألم يرفض الديت اعتماد المال لهذا الجيش بعد أن وافق على الرجال ؟ وحتى لو حقق الجيش البولندى الراهن انتصاراً أو اثنين على الروس ، أفلا تستطيع كاترين ، المتخمة بالجنود بعد أن أبرمت الصلح مع تركيا ، أن ترسل الموجة تلو الموجة من الجنود المدربين المدججين بالسلاح ضد فلوله المبعثرة المختلة النظام ؟ فعلام التضحية بمزيد من الأرواح ، وإسلام نصف بولنده إلى الخراب ، إذا كان التسليم هو النهاية على كل حال ؟

أرسل السفير الروسى الجديد ، ياكوف سيفرس ، إلى أخته وصفا ملؤه العطف يصور فيه بونياتوفسكى فى هذه الساعة ، ساعة الانهيار البدنى والروحى قال :

« لم يزل الملك (فى عامه الستين) رجلا وسيماً أنيقاً ، وإن كان وجهه شاحباً ، ولكن فى وسع المرء أن يرى أن ستاراً قاتماً قد أسدل على روحه . إنه يحسن الحديث ، بل يتحدث بفصاحة ، وهو مجادل حسن الاستماع دائماً ومع الجميع ، ومسكن سيء ، وهو مهذب ، مزدرى مخذول ، ومع ذلك فهو ألطف الناس جميعاً . وإذا غضضت النظر عن منصبه الرفيع ، وتأملته من وجهة النظر الشخصية فقط ، قلت إن فضائله ترجح رذائله . ولا ريب فى انه أسوأ الملوك حظاً بعد لويس السادس عشر . إنه يحب أقرباءه حباً جماً . وهؤلاء الناس هم علة نكباته كلها (٥٠) .

وفى ٢٤ يوليو ١٧٩٢ قرأ بونياتوفسكى الإنذار النهائى الروسى على مستشاريه الخصوصيين ، ونصحهم بأن يركنوا إلى سماحة كاترين وشهامتها . واحتج كثيرون منهم على هذه السذاجة . واقترح أحدهم المدعو مالا خوفسكى أن يجمع فى ساعة واحدة ١٠٠,٠٠٠ جولدن لأغراض الدفاع ، وألح على أن الجيش البولندى يستطيع — حتى إذا اقتضى الأمر التخلى عن وارسو — أن يتقهقر إلى كاركاو ويجند جيشاً جديداً فى الجنوب الآهل بالسكان . وهزم اقتراح بونياتوفسكى بالتسليم فى المجلس بأغلبية عشرين صوتاً ضد سبعة . ولكنه أبطل قرارهم بحكم سلطته دكتاتوراً ، وأمر ابن أخيه بالكف عن المقاومة . ورد يوزف بأن على الملك بدلا من هذا التسليم أن يبادر إلى الجبهة بما يستطيع جمعه من قوات ويقاتل إلى النهاية . فلما أصر ستانسلاس على انضمام الجيش إلى الاتحاد أرسل إليه جميع الضباط إلا واحداً استقالاتهم وعاد يوزف إلى موطنه السابق فى فيينا . وفى ٥ أغسطس احتل جيش روسى براجا . وفى أكتوبر أرسل يوزف رجاء إلى عمه يدعوه لاعتزال ملكه قبل أن تزول البقية الباقية من الشرف . وفى نوفمبر دخل بوتوكى مع طلائع جيش الاتحاديين وارسو دخول الظافر ، وألقى على بونياتوفسكى درساً فى واجبات الملك . ولكن انتصار بوتوكى تبين بعد قليل أنه كارثة ، لأن الجنود البروسيين دخلوا بولنده فى يناير ١٧٩٣ ، وواصلوا زحفهم ليحتلوا دانتزج وتورن ، دون أن يطلق حلفاء بوتوكى الروس رصاصة ليمنعوهم . ووضح أن روسيا وبروسيا قد اتفقتا على تقسيم بولنده ثانية .

وكانت كاترين وفردريك وليم قد وقعا هذا الاتفاق فى ٢٣ يناير ، ولكنهما تكتما أمره حتى ٢٨ فبراير . أما بوتوكى فقد استنفر البولنديين من جميع الأحزاب ليهبوا دفاعاً عن بولنده ؛ فضحكوا منه ، ونادد به يوزف خائناً لوطنه ، وتحداه للمبارزة ، ولكن ستانسلاس منعها .

وبمقتضى هذا التقسيم الثانى حصلت روسيا على ٨٩,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الشرقية ، يعيش فيها ٣,٠٠٠,٠٠٠ من السكان ، بما فى هذا

فلنو ومنسك ؛ أما بروسيا فأخذت ٢٣,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الغربية ، يعيش فيها ١,٠٠٠,٠٠٠ من السكان بما فيها دانتزج وتورن ؛ وبقى لبولنده ٨٠,٠٠٠ ميل مربع و ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة — وهو يقرب من نصف ما ترك لها من قبل فى ١٧٧٣. ولم يكن للنمسا نصيب فى هذه الغنيمة الثانية ، ولكن هدأتها الوعود الروسية بمساعدتها فى الحصول على بافاريا . أما الدول الغربية التى كانت لاتزال منهمكة فى صراعها مع فرنسا الثائرة فلم تتخذ أى اجراء ضد هذا الاغتصاب الثانى ، الذى عللته لها كاترين بأنه ضرورة اقتضاها تطور الدعوة الثورية فى وارسو ، التى تهدد بالخطر جميع الملكيات.

ولكى تلبس هذه السرقة ثوب الشرعية أمرت بونيا توفسكى أن يدعو الديت للاجتماع فى جرودنو ، وأمرته بالحضور بشخصه ليوقع على تحالف مع روسيا فأبى الذهاب أول الأمر ، ولكن حين عرضت الوفاء بديونه — التى بلغت الآن ١,٥٦٦,٠٠٠ دوقاتية — قبل هذا الإذلال الجديد خدمة لدائنيه . وزود السفير الروسى بالمال لرشوة عدد كاف من النواب ليحضروا اجتماع الديت ، ولم يجد عناء فى رشوة عدة أعضاء من بطانة الملك ليفشوا كل كلمة فاه بها سيدهم وكل عمل أتاه . وأمكن اقناع هذا « الديت الأخير » (١٧ يونيو إلى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣) بأن يوقع معاهدة مع روسيا ، ولكنه ظل شهوراً يأبى التصديق على التقسيم الثانى . وقيل للأعضاء أنهم ممنوعون من مغادرة القاعة حتى يوقعوا ، فظلوا على رفضهم وجلسوا صامتين اثنتى عشرة ساعة . ثم طرح الرئيس المسألة للتصويت ، فلما لم يسمع جواباً أن السكوت علامة الرضى (٢٥ سبتمبر) . وعاد ما بقى من أرض بولنده محمية روسية ؛ وأعيد دستور ١٧٧٥ .

وإذا كان فى استطاعة رجل واحد أن يفتدى الأمة فذلك هو كوتشيوسكو أمده التشارتورسكيون بالمال فذهب إلى باريس (يناير ١٧٩٣) والتمس معونة فرنسا لبلد يتعاطف فى حرارة مع الثورة الفرنسية . وتعهد بأنه لو مدت فرنسا يد المعونة لبولنده لهب الفلاحون البولنديون فى ثورة على القنية ، وأهل المدن على النبلاء ، وقال ان بونياتوفسكى سينزل عن عرشه ليكون النظام جمهورياً ، وإن جيشاً بولندياً سيساند فرنسا فى حربها مع بروسيا[٥١] .

ورحب الزعماء الفرنسيون بمقترحاته ، ولكن نشوب الحرب مع انجلتره (فبراير ١٧٩٣) وغزو الحلفاء لفرنسا ، قضيا على كل أمل فى تقديم العون لبولنده .

وفى غياب كوتشيوسكو جند بعض المواطنين والماسون الأحرار وضباط الجيش جيشاً بولندياً جديداً (مارس ١٧٩٤) . وهرع كوتشيوسكو من درسدن إلى كركاو لينضم إليه ، فعين قائداً أعلى وأعطى سلطات مطلقة ، وأمر كل خمس بيوت فى بولنده أن توافيه بجندى من المشاه ، وكل خمسين بفارس ، وأمر هؤلاء المجندين بأن يأتوا بما يجمعونه من سلاح ، حتى المعاول والمناجل . وفى ٤ أبريل هاجم بأربعة آلاف مقاتل نظامى وألفى فلاح مجند قوة عدتها سبعة آلاف روسى فى راتسلافيس قرب كراكاو ، وهزمها بفضل براعة قيادته من جهة وفاعلية مناجل الفلاحين من جهة أخرى .

فلما سمع فريق الراديكاليين أو « اليعقوبيون » فى وارسو بهذا النصر نظم رجاله عصياناً مسلحاً انضم إليه الزعماء من الطبقة الوسطى فى تردد . وفى ١٧ أبريل هاجم هؤلاء الثوار الحامية الروسية المؤلفة من ٧,٥٠٠ مقابل ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وهزموا فرقة بروسية من ١٦٥٠ جندى ، وهربت قوات الاحتلال ، وخضعت وارسو لحظة للسيطرة البولندية . وحررت انتفاضة كهذه مدينة فلنو (٢٣ أبريل) وشنقت هتمان (زعيم) لتوانيا الأكبر ، واستردت أجزاء من بولنده حتى منسك تقريباً . وفى ٧ مايو وعد كوتشوسكو الإقنان بعتقهم ، وكفل لهم تملك الأرض التى يزرعونها . وانضوى تحت لوائه خلق كثير من المتطوعين والمجندين حتى اجتمع له فى يونيو ١٧٩٤ (١٥٠,٠٠٠) رجل لم يكن منهم حسن التجهيز أكثر من ٨٠,٠٠٠ .

على هؤلاء تدفقت الموجات المتتالية من الجنود الروسية أو البروسية المدربة . وفى ٦ يونيو فاجأ جيش متحالف من ٢٦,٠٠٠ مقاتل البولنديين قرب تشيكوسينى ، ولم يتح لكوتشيوسكو من الوقت إلا ما يجلب فيه ١٤,٠٠٠

مقابل فقط . فهزم بخسائر فادحة ،والتمس الموت فى المعركة ، ولكن الموت راغ منه ؛ وتقهقرت فلول البولنديين إلى وارسو . وفى ١٥ يونيو استولى البروسيون على كراكاو ؛ وفى ١١ أغسطس استعاد الروس فلنو ؛ وفى ١٩ سبتمبر أبادت قوة روسية من ١٢,٥٠٠ من الجنود المتمرسين بالقتال بقيادة سوفوروف جيشاً بولندياً من ٥,٥٠٠ مقاتل عند تريسابول ؛ وفى ١٠ أكتوبر هزم ١٣,٠٠٠ روسى كوتشيوسكو نفسه وهو يقود ٧,٠٠٠ بولندى عند ما سيسجويس ، وجرح جرحاً خطيراً وأسر . ولم يفه كما زعمت الأسطورة بصرخة اليأس « لقد قضى على بولنده ! » ولكن الهزيمة كانت قاضية على الثورة الباسلة .

أما سوفوروف فقد وحد مختلف الجيوش الروسية واقتحم معسكر البولنديين الحصين فى براجا ، وراح جنوده الذين أصابهم جنون المعركة يذبحون لا المدافعين فقط بل سكان البلدة المدنيين . وسلم يونياتوفسكى وارسو تفادياً لمذبحة أشد بشاعة . وأرسل سرفوروف كوتشيوسكو وغيره من زعماء الثوار إلى حيث السجن فى سانت بطرسبرج ، وأرسل الملك إلى جرودنو ليكون رهن إشارة الإمبراطورة . وهناك ، فى ٢٥ نوفمبر ١٧٩٥ ، وقع على اعتزاله الملك . وتوسل إلى كاترين أن تبقى على جزء من بولنده ، ولكنها صممت على أن تحل المسألة البولندية بالقضاء على الأمة البولندية كما ظنت . وبعد خمسة عشر شهراً من النزاع ، وقعت روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة التقسيم الثالث (٢٦ يناير ١٧٩٧) واستولت روسيا على كورلاند ولتوانيا وغربى بودوليا وفولينيا — ١٨١,٠٠٠ ميل مربع ؛ واستولت النمسا على « بولنده الصغيرة » بما فيها كراكاو ولودان — ٤٥,٠٠٠ ميل مربع ؛ وأخذت بروسيا الباقى بما فيه وارسوا — ٥٧,٠٠٠ ميل مربع . وفى التقسيمات الثلاثة كلها استوعبت روسيا نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ من سكان بولنده البالغين ١٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمه (١٧٩٧) ، والنمسا ٣,٧٠٠,٠٠٠ ، وبروسيا ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة .

وفر آلاف البولنديين من وطنهم ، وتسلم الأجانب الأملاك المصادرة . وظل بونياتوفسكى فى جرودنو ، يتسلى بدراسة النبات ويكتب مذكراته . وبعد موت كاترين دعاه بولس الأول إلى سانت بطرسبرج وخصص له القصر الرخامى و١٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى العام ، وهناك مات فى ١٢ فبراير ١٧٩٨ بعد أن بلغ السادسة والستين . أما كوتشيوسكو فقد أفرج عنه الامبراطور بولس فى ١٧٩٦ ، وعاد إلى أمريكا ، ثم إلى فرنسا ، وواصل جهوده لتحرير بولنده حتى مماته (١٨١٧) . وأما يوزف بونياتوفسكى فقد فر إلى فيينا ، وشارك فى حملة نابليون على روسيا ، وجرح فى سمولنسك ، وأحسن البلاء فى ليبزج ، ورقى مارشالا فى الجيش الفرنسى ، ومات فى ١٨١٣ مكرماً حتى من أعدائه . وأما بولنده فلم تعد دولة ، ولكنها ظلت شعباً وحضارة ، يلوثها الاضطهاد الدينى ، ولكنها تميزت بعظماء الشعراء والقصاصين والموسيقيين والفنانين والعلماء ، ولم تتخل قط عن عزمها على النهوض من جديد .

• • •